الباب الثالث ١-٣

المنهج العام لدراسة ابن ماسويه

سنحاول هنا تحقيق ما جاء في مخطوطات (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) الثلاثة، وإذا قلنا (تحقيق) فنعني بذلك التَّحقيق النَّقديَّ الذي وصفناه عند هيرشبرغ.

سنسعى إلى مقارنة كُلِّ فقرةٍ بما يقابلها –من الناحية العِلميَّة– عند حنين، لكي تكونَ المادَّة التي كتبها ابن ماسويه واضحةً تمامًا، فالعلم هو العلم، وقد عاش الرَّجلان في عصرٍ واحدٍ، وكانا على صلةٍ شخصيَّةٍ.

وإذا وجدنا نقصًا في المادَّة التي جاءت في المخطوطات –وقد وجدنا– فسوف نشير إلى النَّقص اعتمادًا على الحجم الذي كتبه حنين.

فإذا اتَّضحت ملامح النَّصِّ فسوف نقارنه بنصِّ (دَغَل العين) الذي نقوم بتحقيقه في الوقت نفسه وبالطريقة نفسها، وهذا يسهِّل فهم النَّصَّين وتحقيقهما، لأنَّ الكاتبَ واحدٌ وإن اختلفَ الكِتابان من حيث غرضهما.

المُهِمُّ هو معرفة المادَّة العِلميَّة التي جاءت في الكتاب في المرحلة الأولى، تمامًا كما فَعل هيرشبرغ حينما فهم النَّصَّ قبل أنْ يحقِّقَه، واختار –لسببٍ ما– أنْ يترجمَ النَّصَّ لا أنْ يحقِّقه وينشره بالعربيَّة.

الفرق أنَّ هيرشبرغ تعامل مع مخطوطةٍ لا عَيبَ فيها، أو أنها قليلة العيوب، بينما نتعامل مع مخطوطاتٍ وصلت إلى عصرنا بعيدةً كُلَّ البعد عن نصِّها الأصليِّ، ذلك أنَّها تعاني –إضافةً إلى النَّقص– من سوء فهم الناسخ للمادَّة التي يكتبها، فكتَبَ بعضَ الكلمات مشوَّهةً في أماكن عديدةٍ.

بعد أنْ ننتهيَ من (إعادة كتابة) النَّصِّ سنقارنه مرَّةً أخرى من حيث الحجم بما كتبه حنين، ذلك أنَّنا لا نملك من مؤلَّفات ذلك القرن إلَّا ما كتبه هذان الرَّجلان.

وبعد ذلك سنقارن الاصطلاحات التي استعملها المؤلّفان كلاهما، كما سنحصي الاصطلاحات الفنيَّة في كتاب (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) من أجل استخدامها في دراسةٍ مقبلةٍ عن اصطلاحات عصر الترجمة. وإذا وصلنا إلى هذا الحَدِّ من تفهُّم المادَّة العلميَّة، والشَّكل الذي دُوِّنت به فسنعود إلى البحث عن الأصل الإغريقيّ... هل ذكر ابن ماسويه شيئًا لم يذكره الإغريق؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب فعلينا أنْ نبحثَ عن مصدره: مؤلِّفٌ مجهولٌ، أم اجتهادٌ من ابن ماسويه؟ وعندها سنعُدُّ ذلك مساهمةً أصيلةً من المؤلِّف في تطوّر الطِّبِّ وتقدُّمه.

ومن الآن نقول: إنَّ الاعتقادَ السَّائد اليوم بعد كتابات هيرشبرغ ومايرهوف هو أنَّ ابن ماسويه كان أوَّل من ترك وصفًا للسَّبل القَرنيّ، ربَّما عَرَفه غيرُه من قبل، لكنَّ أقدم تدوينٍ له جاء على يده.

وفوق ذلك: إنَّ ابنَ ماسويه هو أوَّلُ من أشار إلى عملية قطع الملتحمة لمعالجة السَّبَل جِراحيًّا، هذه العملية التي لا تزال تُجْرَى حتى اليوم لمعالجة أمراضٍ أخرى، والسَّبَلُ من بينها.

ومن ناحية الاصطلاح الفنيّ نقول من الآن ما قاله مايرهوف بعد أنْ درسَ (دَغَل العين): إنَّ اصطلاحات حنين المتعلِّقة بأسماء أجزاء العين كانت معروفةً من قِبَل ابن ماسويه، بينما استعمل ابن ماسويه عددًا قليلًا من الاصطلاحات التي لم يستعملها حنين أبدًا.

وفي حقل الاصطلاحات، بعد أنْ نحصيَ ما جاء في كُتُب حنين وابن ماسويه سوف نقارنها بما جاء في رسالة عيسى بن حكم الدِّمشقيّ التي رأت النُّورَ أيام الرَّشيد، ومن هذه المقارنة سوف نعرف ما هي الاصطلاحات المعروفة في الوسط الطِّبِّيّ في دمشق قبل أنْ تبدأَ عملية الترجمة في بغداد، وهذا أمرٌ مُهمٌّ آخر

في مجال تاريخ ظهور الاصطلاح الطِّبِّيّ، سوف يكون موضع اهتمام المشتغلين على (المعجم التاريخيّ للُّغة العربيَّة).

وإذا قارنَّا اصطلاحات عيسى بن حكم بتلك التي جاءت في التُّراث العربيّ المكتوب قبل عصر عيسى بن حَكَم فسوف نعرف ما هو حجم الاصطلاحات المستعملة قبلَ أنْ تأخذَ عملية التَّرجمة مداها في بغداد. نقصد بالتُّراث المكتوب قبل عصر عيسى بن حَكَم تلك المقتبسات المنسوبة إلى المؤلِّفين الأقدمين، ماسرجويه البصريّ[1] على سبيل المثال، هذه المقتبسات التي تحتوي على اصطلاحاتٍ موضوعةٍ أو معروفةٍ في أوائل القرن الثامن، وهذه المقتبسات ينبغي البحث عنها في (الحاوي).

وإذا أخذت هذه الدِّراسات مداها الصَّحيح، فإنَّه ينبغي أنْ تُجْمَعَ الاصطلاحات العلميَّة من الشِّعر الجاهليّ ومن الحديث النَّبويّ الشَّريف، وبالطبع من القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، فمصطلحاته كانت مفهومةً عند العرب في الوقت الذي حصل فيه التنزيل.

إذا تأمّلنا المشروع فهو مشروعٌ كبيرٌ، لذلك سبق أنْ ألمحْنا إلى دورِ المؤسَّسات، وأبدينا كُلَّ احترامٍ وإعجابٍ للأفراد الذين قاموا بجزءٍ من هذا العمل نيابةً عن المؤسَّسات.

النَّتائج التي يُؤمَلُ أنْ يصلَ إليها البحثُ مُهِمَّةٌ ومتعدِّدة الجوانب، نشير هنا إلى نتيجتين منها:

١- فالعلماء العرب اليوم يسعون إلى كتابة (المعجم التاريخيّ للُّغة العربيَّة) وهذا المعجم يحتاج إلى جهود من يعرف الاصطلاح وتاريخه وطريقة وضعه في اللُّغة، وهنا في (لغة الطِّبِّ).

١- ظهر الكتاب أيام عمر بن عبد العزيز (حكم من ٩٩-١٠١هـ=٧١٧-٧٢٠م) أيْ حوالي عام (٧٢٠م).

٢- وتاريخ العلم العربيّ قبل الإسلام لم يكتبْ بعد، وما وجود الاصطلاح إلَّا دليلٌ على وجود العلم، فالأمم التي تصنع العلمَ اليوم تصنع معه اصطلاحاته، وكان هذا شأنَ العرب أيام عِزِّهم.

من المعروف أنَّ المؤلِّفين -بَدْءًا من منتصف القرن الحادي عشر الميلاديّ (الخامس الهجريّ)- صاروا يستندون في مؤلَّفاتهم على أعمال الأساتذة العرب، وفي مجال طِبِّ العيون صار المصدر حنين، أو الرازي، أو عليّ بن عيسى، أو ابن سينا بالدَّرجة الأولى، وفي أحيانٍ محدَّدةٍ أحمد بن محمَّد الطَّبريّ، وهذا لا يشير إلى أنَّه كان في درجةٍ أقلَّ من الأهمية أو من العلم، بل يشير إلى أنَّ كتابه لم يلقَ الانتشار الذي لقيته كُتُب الآخرين، لسببٍ ما.

صار المؤلِّفون يعتمدون على مراجعَ عربيَّةٍ وليس على مراجع إغريقيَّةٍ مترجمةٍ، وهذا يعني أنَّ المؤلَّفات العربيَّة صارت من حيث الكثرة، ومن حيث الأهمية في مكانةٍ سمحت لها بأنْ تحلَّ محلَّ التَّرجمات العربيَّة للكُتُب الإغريقيَّة، وبذلك غابت أسماء الأساتذة الإغريق أو كادت في المؤلَّفات المتأخرة في أواخر القرن الحادي عشر وبعد ذلك.

وإذا وجدنا اسمًا لعالمٍ إغريقيٍّ أو لكتابٍ إغريقيٍّ فالأرجح أنَّ المؤلِّفَ المتأخِّرَ أخذ الاسم والاقتباس من مرجعٍ عربيٍّ، هذا المرجع العربيُّ هو الذي توفر للمؤلِّفِ المتأخرِ؛ أيْ أنَّه كان المصدر المباشر له.

ومعنى ذلك أنَّ معرفة اللُّغة الإغريقيَّة لم تعدْ ضروريةً أبدًا للتَّأليف في الطِّبِّ بعد انتهاء القرن العاشر حيث جرى تأسيس الطِّبِّ العربيِّ وظهرت المؤلَّفات المُهمَّة فيه.

في الطِّبِّ العامِّ صار كتاب عليّ بن العبَّاس المجوسيّ (كامل الصِّناعة الطِّبِّيَّة) أو (الكتاب الملكي) مرجعًا مُهمًّا بَدْءًا من نهاية القرن العاشر، ويَرَى كثيرٌ

من مؤرِّخي الطِّبِّ أنَّ هذا الكتاب بدأ يفقد أهميته بظهور كتاب ابن سينا (القانون) في منقلب القرنين العاشر والحادي عشر، وأنَّ فقدان هذا الكتاب أهميَّتَهُ جاء بشكلٍ تدريجيٍّ.

هذا يعني أنَّ الكتابَ (الملكي) ينبغي أنْ يُعَدَّ واحدًا من هذه المراجع المُهمَّة التي ذكرناها إلى جانب كُتُب حنين والرازي... إلخ. والسَّبب في تراجع أهمية هذا الكتاب أمام (القانون) هو حسن تبويب (القانون)، وهذا الرأي الشَّائع بين مؤرِّخي الطِّبِّ العربيِّ الغربيين ينبغي أنْ يكونَ موضعَ امتحانٍ من قبل المؤرِّخين العرب، ذلك أنَّ ثمَّةَ مؤلَّفاتٍ عربيَّةً -لا يعرفها المؤرِّخون الغربيون حتى الآن- اعتمدت على الكتابين (الملكي) و(القانون) بالقدر نفسه، وبخاصَّةٍ في مدرسة دمشق الطِّبيَّة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ونكتفي هنا بإيراد مثالٍ واحدٍ على وجه السُّرعة، وهو كتاب (امتحان الأطبَّاء لكافة الألبَّاء) الذي كتبه السُّلميُّ[1] في دمشق في القرن الثاني عشر.

أطبَّاء القرن العاشر اعتمدوا بشكلٍ أساسيٍّ على مؤلَّفات القرن التاسع، وعلى الترجمات التي تمَّت في هذا القرن أو قبله بقليل، ولا نعرف ترجماتٍ مُهمَّةً ظهرت بعد منتصف القرن التاسع -أيْ بعد وفاة ابن ماسويه، وفي الوقت الذي كان فيه حنين في أوج نشاطه العلميِّ- إلَّا ترجمات حنين.

١- موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار السُّلميّ، المتوفى عام (٦٠٤هـ=١٢٠٧م). يُنظر: ابن أبي أصيبعة/ عيون الأنباء: (١٩١/٢). وحول الكتاب يُنظر: فهرس مكتبة سامي حداد- بيروت. (ص٨٠-٨١). وهذا الطبيب هو والد سعد الدين أبي إسحق إبراهيم بن عبد العزيز الطبيب الشهير المتوفى سنة (٦٤٤هـ). يُنظر حوله: ابن أبي أصيبعة/ عيون الأنباء: (١٩٢/٢).

فهل كان ما ألَّفه أهلُ القرن التاسع جديرًا بأنْ يعتمدَ عليه العلماءُ الذين بنوا صرحَ طِبِّ العيون العربيِّ، نعني بهم –بعد القرن التاسع– المجوسيّ وأحمد بن محمَّد الطَّبريّ إلى جانب الرازي العظيم؟

أم أنَّ العرب كانوا قد ترجموا كُلَّ ما وقع في أيديهم من تراثٍ إغريقيٍّ، ولم يبقَ شيءٌ يمكن أنْ يكون موضوعَ ترجمةٍ؟

الأرجح أنَّ الاحتمال الثاني هو الصَّحيح، فقد جهدَ العربُ ما استطاعوا من أجل جمع التراث الإغريقيِّ في العلم بقصد ترجمته والإفادة منه، وهم بذلك لم ينقلوا هذا التراث إلى لغتهم فحسب بل أنقذوه من الضَّياع.

كُلُّ هذه الدِّراسة سوف تلقي مزيدًا من الضَّوء على الجانب العِلميِّ من شخصيَّة ابن ماسويه، لقد كان ابن ماسويه واحدًا من أبرز رجالات بغداد وعلمائها في زمانه، وهو يستحق أنْ ندرسَ مساهمته في حقل (علم العين).